

الحملة على مصر: مشروع تنويري (قراءة نقدية)

أ.د. ليلى عنان

عُقدت في شهر يونيو من العام 1998 ندوة علمية كبيرة بالمعهد الفرنسي والمتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، وكان عنوانها: "الحملة على مصر - مشروع تنويري" L'Expédition d'Egypte : une entreprise des Lumières 1798-1801 وأشرف على تنظيمها ونشر أعمالها أكاديمية العلوم وأكاديمية النقوش والآداب". وقد تضمنت ستة وعشرين مقالاً.

ونقدم فيما يلي قراءة نقدية لأهم الأفكار والنتائج التي تضمنتها الأبحاث والمقالات وكان أهم ما جاء في مقدمة الندوة التي كتبها "باتريس برية" Patrice Bret - وهو من المتخصصين في تاريخ الحملة - أنه لا يمكن فصل مشروع التنوير عن مشروع غزو واحتلال مصر من 1798-1801 والرسم المنشور في أول هذا المجلد لعمال مصريين في ورشة تشير إلى جانب من جوانب الحملة، هذا الجانب الذي عادة ما ينسى، بسبب الاهتمام المبالغ بالجانب الحربي أو حتى بالجانب السياسي. رسم يذكرنا بالجانب الاقتصادي في تاريخ هذه الحملة. ويشير "باتريس برية" إلى أن الصورة تؤكد لنا العلاقة الحميمة بين الصانع المصري والفنان الفرنسي الذي رسمها، كما يأسف "باتريس برية" على أن اللياقة السياسية حولت الاحتفال بمرور مائتي عام على الحملة، إلى "مصر - فرنسا : آفاق مشتركة". وكان قد تم دعوة أساتذة متخصصين من كل العالم، وهو يأسف أيضاً للمقاطعة "الجزئية" للدارسين المصريين؛ بسبب الحساسية المفرطة التي ولدتها مشاكلهم الحالية.

ثم يقدم للقارئ العلوم المختلفة التى ستدرس فى هذه الندوة، كل فى اختصاصها، فى ناحية من نواحي الحملة.



وفى مقدمة الندوة التى تحمل عنوان: "التنوير ومصر" يسرد علينا هنرى لورنس Henry Laurens تاريخ الإعجاب فى أوربا بمصر الفرعونية، إلى أن قررت الحملة أن تذهب إلى مصر لتجد "الحكمة"، وهى صفة كهنة عصور الفراعنة. إنها "مصر" كما كانوا يتخيلونها؛ ثم يحكى "لورانس" كيف أنهم -أيضا- كانوا يكتبون تاريخ مصر على هواهم إلى أن نصل إلى القرن الثامن عشر، حيث قرر "العقل" الفرنسى أن حال مصر لن ينصلح إلا بالغزو : ستكون النتيجة إما حكما مستبداً ، اعتاده الشعب المصرى فلن يثور عليه، وإما رجل عظيم يحكم البلد فيكون، فى ذات الوقت، غازيا وقانونيا. ومن هنا، جاءت الفكرة الأساسية لجزء "مصر المعاصرة" فى كتاب وصف مصر. فمصر موضع دراسة لإعادتها إلى حالها السابق المبهر؛ لأنها كانت أرض الحكمة والمعرفة، والوصول إليها هو العودة إلى الجذور. إنها تطبيق لحديث التنوير عن مصر، وتأكيد فكرة حتمية استعمارها. كما كان الإعجاب بعلى بك الكبير، لأنه ينفذ المشاريع الأوربية من المنظور الغربى. أما عن تصدير التنوير، أو آثاره، فالصمت أبلغ من أى كلام فى هذا البحث القيم..!

وتحت عنوان: "ناقلو التنوير السياسى والمعرفى والأيدىولوجى.. فرنسا وتحديث الإمبراطورية العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر" قدم فريدريك هيتزل Frédéric Hitzel دراسة بيّن فيها أنه كان يموج فى فرنسا، فى القرن الثامن عشر، تياران يهتمان، مثل كل دول أوربا، بحال الإمبراطورية العثمانية التى كانت على وشك الانهيار : تيار يرى أن العلاقات التجارية المتميزة بين فرنسا والعثمانيين، ستنتهى مع انتهاء الإمبراطورية. ومن ثم لابد من خلق إمبراطورية استعمارية فرنسية فى المشرق، قبل أن تستولى روسيا والنمسا على غالبية الممتلكات العثمانية. ويفشل هذا المشروع بسبب المشاكل الاقتصادية فى فرنسا نفسها. أما التيار الثانى، فهو يبنى مشروعه على

أساس سلام أوربي مستديم، يتعين بمقتضاه أن تتحد الدولة العثمانية، وذلك بمساعدة فرنسا التي ستقل "التنوير" إلى هذه الدولة، وبالتالي تحتفظ بمكانتها المتميزة في المنطقة.

ولم يكن مشروع "فرجين Vergennes" وزير خارجية فرنسا، خيالاً - وهذا بالضبط ما سيحدث مع "محمد علي" في مصر، ومبدأ "التنظيمات" في تركيا، في القرن التاسع عشر، أياً كان، فقد ساعدت فرنسا تركيا على تعليم بعض الجند الأتراك. وفي عام 1784، تأكد إنشاء مصنع للمدافع وتعليم الضباط الأتراك. كذلك، ذهب إلى تركيا من يعلم العثمانيين بناء السفن الحربية. وسيكتب الضباط الفرنسيون إرشاداتهم في كتيبات تترجم إلى التركية، وسيطبعها في بولاق "محمد علي" فيما بعد.

مشاريع كان لها نتائج رائعة من العام 1784 إلى العام 1788. ولكن الحرب بين روسيا والدولة العثمانية أجبرت الضباط الفرنسيين المدرسين على الرحيل. عاد التعاون مع السلام في العام 1792. وعلى الرغم من قيام الثورة في فرنسا آنذاك، إلا أن التعاون استمر حتى علمت الدولة العثمانية باتصالات الجنرال بونابرت بحكام المقاطعات البلقانية واليونانيين. فعاد إلى فرنسا غالبية أعضاء البعثة، من فنيين وفنانين وضباط. ولكن الدولة وجيشها وبحريتها بالذات استفادت جداً من هذا التعاون.

ولكن تيار التدخل العسكري قويت شوكلته بكتاب "البارون دي توت"، عندما نشر: "مذكرات عن الأتراك والتتار" في عام 1784. فكانت حججه توصل القارئ إلى ضرورة إنهاء الإمبراطورية العثمانية؛ من أجل الهيمنة الأوربية. وكان لهذا الكتاب نجاح، منقطع النظير، قبل أن يجد فولنيه "Volney" في كتاباته، "الحجج النظرية للغزو". ولكن الدولة لن تستمع إلى آرائهم، إلى أن جاء مشروع "تاليران وبونابرت" لغزو مصر. خاصة أن بعض الضباط الذين عملوا بأمر الحكومة على تجديد الجيش العثماني، كانوا قد نشروا ما يؤكد ضرورة استعمار أراضي الدولة العثمانية.

وتأتى دراسة "مارى - نوييل بورجيه" Marie-Noëlle Bourguet تحت عنوان: "علماء فى غزو مصر.. العلم والرحلات والسياسة فى عصر الحملة على مصر". فتبين أنه فى العام 1627، كتب الفيلسوف الإنجليزى "فرانسيس بيكون" فى كتابه "الأتلانديد الجديدة" برنامجاً للسفر فى المستقبل : إن السفر لابد أن يكون أداة بحث علمى. وقد طبق هذا بالفعل فى القرون اللاحقة، وإن كانت قد زادت أهميته بصورة رسمية فى نهاية القرن الثامن عشر : أساء الرحالة العلماء يكاد يملأ صفحة بكاملها، وأغلبهم مرسلين من قبل دولتهم.

فما نقله بونابرت باصطحابه علماء، تحت حماية الجيش، يعتبر صورة مطورة لنفس الفكرة، ولو أن حروب الثورة قبل غزوة مصر، كانت قد طبقت نفس المبدأ فى البلاد المهزومة. ولكن، نظراً لأن مصر وراء البحار، وحجمها أكبر من الدويلات الأوربية المستعمرة، فقد أصبح عدد العلماء أكثر بكثير.

وتذكر مارى بورجيه أن بونابرت أنشأ عند وصوله، فرعاً للمعهد الفرنسى، فى القاهرة، وكان هذا هو الجديد فى الأمر : فى كل الرحلات السابقة، كان العلماء يرجعون إلى باريس لدراسة ما توصلوا إليه، ولكن نظراً لبعدها عن مصر فالمعهد الفرنسى فى القاهرة كان سيدرس محلياً ما توصل إليه من اكتشافات.

وترى مارى بورجيه أن ظروف الحياة فى بلد يعادى المستعمر ثم رحيل بونابرت، هو ما تسبب فى منع المشروع من تنفيذ أهدافه الدراسية. وأيضاً بسبب ما حدث للعلماء فى عهد "مينو" وإرسالهم أفراداً إلى مناطق متباعدة. فكانت خطابات العلماء التى تنم عن إحباطهم وتشاؤمهم. مما يدل على أن مزاولة العلم لابد لها من ظروف تهيئ الجو المناسب لتقدم العلوم.

ولكن الحقيقة أن العلماء كانوا فى خدمة المشاريع الاستعمارية "لبونابرت"، فكانت تحركاتهم المستمرة خارج القاهرة، لدراسة القطر المصرى فى كل نواحيه. وكان العلماء تحت إمرة ضباط الجيش وتحركاتهم. فكان البحث سهلاً لمن تحرك فى مناطق آمنة، بينما البحث فى مصر العليا كانت له مخاطر عدة، وكأن العلماء جزء من

دوريات الاستكشافات العسكرية. خاصة أن أهم هدف حدده لهم بونابرت، كان رسم خريطة دقيقة لمصر. واختيار بونابرت للعلماء المصاحبيين لحملة، يدل على أن اهتمامه الأول كان للعلوم التطبيقية أكثر من العلوم النظرية، على الرغم من ادعائه تحديث مصر. من هنا جاء الاهتمام الأكبر بالجغرافيين وبت ترجمة كتب الجغرافيا للرحالة العرب، مما يدل بالفعل على منهج التنوير، الذى يهتم بدراسة الأرض والمساحة. وما كان ذلك إلا تكراراً لما كان يحدث فى فرنسا قبل ذلك بعقدين.

أما دراسة الآثار، فقد حدثت بطريق الصدفة عندما انبهر بعض هؤلاء العلماء - والمهندسين منهم بالذات - بما شاهدوه فى مصر العليا، فأخذوا يرسمونه حتى دون إذن أو حماية من الجيش الفرنسى. ولكن دراساتهم كانت تحتم عليهم أن يدرسوا هذه الآثار من كل جانب هندسى حتى يتوصلوا إلى قواعد بنائها. ولكن هذه الدراسات كان لها أيضاً جانب نفعى؛ لأن دراسة الأثر والأرض التى بنيت عليه، يساعد على تحديد ما سيحفر من قنوات فى الريف، أو طريق يؤدى إلى مدينة السويس.

وكتب ايف ليسوس Yves Laissus مقالته عن "لجنة العلوم والفنون ومعهد مصر" وضح فيها أن إرسال بعثة من العلماء مع الحملة على مصر لم يكن أول تجربة بهذه الصورة، إذ أرسل قبلها بعثة علمية أخرى إلى إيطاليا، كان من ضمن أعضائها "مونج" و"برتوليه". وكانت فكرة بعثة العلماء إلى مصر فكرة "بونابرت" نفسه. وكانت السرية المطلقة عن هدف الرحلة من أسباب إحجام الكثير من المدنيين عن الاشتراك فى رحلة "تسليح البحر الأبيض المتوسط". ولكن شهرة أسماء "بونابرت، ومونج، وبرتوليه، ودولوميو"، شجع كثيراً من الشباب إلى الاشتراك فى هذه المغامرة الغامضة.

تكونت المجموعة من تخصصات مختلفة: كيميائيين وفلكيين ومهندسين وعلماء رياضيات وعلماء طبيعة وموسيقين ومستشرقين ورسامين ورجال طباعة وأطباء وصيادلة... كل هؤلاء وعددهم حوالى 160 عالماً، كانوا تحت إمرة "كافاريللى Caffarelli"، وهم فى حماية الجيش.

ويشير ليسوس إلى أن المعهد أنشئ بقرار من بونايرت يوم 22 أغسطس 1798. وبلغ عدد أعضاء المعهد 48 عضواً. ويخلص إلى أن العلماء لم ينجحوا على الرغم من محاولات عديدة، في إقناع العلماء الشرقيين بالفائدة المفترض أنهم جاءوا ليقدمونها لهم؛ إذ كانت -في رأيه- الفجوة كبيرة بين الثقافتين.

وجاءت دراسة شارل جيلليزبي Charles C. Gillispie تحت عنوان: "المهندسون أمام مصر" يبين فيها أن أغلب المهندسين المشتركين في البعثة كانوا من تلاميذ مدرسة الهندسة؛ أى أنهم صغار السن، وكان عدد المهندسين 60 خلافاً للمهندسين العسكريين. وكان أهم إنجاز لهم هو "كتاب وصف مصر"، ويشير كاتب البحث إلى أن مشروع الكتاب كان في مخيلة بونايرت منذ بداية الرحلة. كذلك كان بونايرت يشرف على دراسات المهندسين للآثار وكأنه قائد حربى يوجه جنده.

الحقيقة أن هدف أبحاث المهندسين فشل من أساسه، إذ كان المطلوب إنشاء طريق بحرى بين البحرين الأحمر والأبيض. ولكن المشروع فشل لعدة أسباب، والسبب العلمى أن "لى بار" Le Père توصل إلى أن مستوى البحر الأحمر يعلو بعشرة أمتار عن مستوى البحر الأبيض.

ولكن باقى دراساتهم على أرض مصر كانت ستفيد، لو أن المشروع الاستعماري "لمينو" كان قد تحقق. أما رسوماتهم للآثار بدقة متناهية، في مصر العليا، فكانت من وحي اهتمامهم الخاص، وقاموا بها في ظروف خطيرة، وأحياناً دون علم رؤسائهم من الضباط. وكانت الرسومات على أساس هندسى (كما تعلموا في دراساتهم وليست مجرد ما نظروا إليه باحتقار)؛ مثل رسوم الفنان "فيفان دينون". وإعجابهم بالمعابد كان أقوى من تحفظهم؛ لأن المعابد كان أساسها المعابد اليونانية والفن الإغريقى. وكان عليهم أن يغيروا نظرتهم وينسوا ما فرض عليهم في دراساتهم الكلاسيكية، أى الإغريقية والرومانية. كل ذلك طبعاً حسب ظروف الحرب التى كانت تمزق آنذاك مصر العليا.

كانت حصيلة كل هذه الرسومات الدقيقة المدروسة أهم ما نشر في "كتاب وصف مصر" ولن ينتهى تحضير ونشر الكتاب إلا في عام 1829. وكان نصيب ما أنجزه المهندسون من دراسات ورسوم أهم ما نشر في هذا الكتاب.

ويبين شارل جلسبي أنه لو تابعناهم في حياتهم اليومية، سنرى أنهم كانوا يختلفون كلية عن باقى جند الحملة، سواء في معاملاتهم مع أهالى البلد أو مع الفكرة الاستعمارية من أساسها.

وتناولت "كارميليا أو بسومر Carmélia Opsomer" دراستها حول "مخطوطات ريدوتيه، رسام وكاتب يوميات الحملة". وتشير كارميليا إلى أن "ريدوتيه" عُرف بصفته رساما يساعد دراسات الآخرين. ولكنه كان أيضا ممن كتبوا مذكرات يومية، كتبها في مصر، ووجدت مؤخرا. يبدو مما قيل عنه أثناء حياته، أنه اشترك في عمل قاموس عن سير أعضاء المعهد في مصر. أيا كان، فما كان يكتبه يوجد حاليا في مكتبة الأرسنال بباريس.

ما يهمننا، هو حوليات تقصى كل ما حدث، منذ مغادرته طولون في الطريق إلى مصر، حتى عودته إلى فرنسا، في 26 نوفمبر عام 1801. إنه يهتم بكل شئ في هذه الحوليات ويصفها بدقة، خاصة إذا تعرض لما حدث في المعهد ونقل ما قيل فيه. ولكن كثرة التفاصيل والرجوع إلى التاريخ، مثلما نقل في وصفه لمالطة مثلا، كان من أسباب عدم نشر هذه الكتابات القيمة؛ كذلك ما دفع له من أتعاب على رسوم نشرت في "كتاب وصف مصر"، وإبعاده عن اللجنة المنظمة للكتاب كان ظلما خاصة أنه اشترك في الحملة. بينما لم يترك غيره أرض فرنسا، ومع ذلك، أشركوهم في اللجنة المنظمة لنشر كتاب وصف مصر.

وكتب فرديريك ريجان Frédéric Régent مقالة تحت عنوان : "مصر كما يراها الفلاسفة الأيديولوج" (*): نظرة جديدة في لايكاد فيلوسوفيك على حملة بوناپرت.

(*) الأيديولوج : هم حركة ثقافية فرنسية، ظهرت فقط في نهاية القرن الثامن عشر، ولم يكن لها أى صدى، حتى إننا لن نجد لها في القواميس الفرنسية ! وهم امتداد لنظرية الخواص لكونديلياك Condillac، فالخواص هي الفاعل الأول لكل ما يحدث من مشاعر نفسية أو روحية، وبالتالي تتحكم بعد ذلك في المشاعر الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

والمعروف أن مجلة "لاديكاد فيلوسوفيك" من أشهر المجلات المعروفة في نهاية القرن الثامن عشر، وكانت تظهر كل عشر سنوات، وتشتمل على مقالات في العلوم والآداب والفن والاقتصاد. إنها لسان حال مثقفين من المعجبين جداً ببونابرت، وكان اهتمامهم الخاص بالحملة مرده إلى أن بعض محرري المجلة من بين من اشتركوا في غزو مصر.

انكشف السر، أخيراً، وعرف أن الحملة التي يعدها "بونابرت" ستوجه إلى مصر. فكان في 19 أبريل 1798، أول مقال عن مصر، متأثراً جداً بكتاب "فولنيه" عن مصر والمنظمة. وهى تصدر بؤس المصريين ولو أن البلد غنى مما يسمح لحكامه بالثراء الفاحش، على الرغم من إهمالهم الشديد للزراعة والتجارة. وكاتب المقال يؤكد أن غزو سوريا كان ضروريا للحفاظ على مصر. وستكون قلعة يافا أحسن حصن للفرنسيين عند غزوها.

ثم كان مقال آخر في 21 أكتوبر 1798 يحاول شرح الموقف ليستطيع الفرنسي في بلده أن يتتبع ما يحدث في مصر. ومرة أخرى، يأخذ كاتب المقال وصفه لمصر من كتاب "فولنيه".

وتيار "الأيدولوج" يواجه معضلة في حل مسألة التعامل مع مصر ورخائها و"شعبها البائس، الجاهل، المتبلد، إلى أقصى حد"، حسب ما يكتبه "بونابرت" للحكومة في باريس. فهم يتساءلون: هل تستغل الجمهورية الفرنسية ثروات مصر، أم ترتفع بالشعب المصرى إلى مستوى البلاد الحرة؟

أحدهم أكد أن اندماج المستعمرين الفرنسيين لن يثير أى مشكلة لأن أغلبية سكان مصر من المسيحيين، لأن كاتب المقال لا يرى في مصر إلا "مستعمرة" بمعنى إرسال فرنسيين يعيشون فيها. أما بالنسبة لسوريا، فعلى اليهود المشتتين منذ ثمانية عشر قرناً، أن يذهبوا ليعيشوا فيها. ونظريته تتسم "بالإنسانية"، فهو لا يبحث إلا عن مصلحة البلد المستعمر!! ولم تكن هذه هى المقالة الوحيدة في هذا الاتجاه.

إنهم لا يرون في الفرنسيين إلاً محرري مصر من الاستعباد، ويصورون العلاقة

بين كلا الشعبين بصورة ملائكية. ولا يفهمون كيف تقوم ثورة القاهرة، فما هدف "بونابرت" إلا "إعادة الفنون والعلوم على ضفاف النيل المتوحشة، وهى أساس الحضارة وعظمة الشعوب". والهدف الأهم، هو تعويض الممتلكات الفرنسية فى أمريكا وإنشاء مستعمرة "إنسانية" بدون عبيد كما كان الحال فى المستعمرات الأمريكية. وعلى الفرنسيين، والفرنسيات بالذات، الذهاب إلى مصر لتعميرها. والهدف ليس "استعباد" السكان ولكن "تحضيرهم".

أما العلماء الذين اصطحبهم بونابرت معه، فهم ذاهبون من أجل هذا الهدف الأسمى. ولذا، كانت سعادة المجلة بإنشاء فرع للمعهد فى القاهرة، والإعجاب "ببونابرت" وصل للذروة لأنه فى المستقبل سوف يعمل العلماء المصريون والفرنسيون معا من أجل تنفيذ أهم المشاريع. وحتى عندما عاد "بونابرت" "المنتصر" العسكرى إلى فرنسا، لم يتحدثوا عنه إلا بصفته "العلمية" لما فعله فى مصر. فالمجلة هى الوحيدة التى تتحدث عن هذه "الإنجازات"، بينما كل الجرائد الأخرى - وهى كثيرة جدا - لا تهتم إلا بالجانب العسكرى للحملة، وآثارها على السياسة الداخلية والخارجية. وهكذا أكدت المجلة أن بونابرت أوصل "التنوير" إلى مصر، لأن الحملة كانت وليدة "الثورة والتنوير". ولكن هذه الرؤية باتت محدودة فقراء المجلة لم يتعدوا بضع مئات.

وجاءت دراسة ماريا لويزا أورتيجا María Luisa Ortega عن "إعادة إحياء" مصر: الكلام يواجه الواقع بينت فيها أن فكرة استعمار مصر من أجل "خلق شعب جديد" هى وريثة الثورة الفرنسية وهدفها الشامل لمنح الرخاء لكل بلاد العالم؛ لأن على فرنسا واجب تحضير وتجديد العالم. ولكن بالنسبة لمصر، فالموقف مختلف، لأنها كانت الأصل فى تاريخ الحضارة، فالقضية هنا هى "إعادة إحياء" شعب نسى ماضيه المبهر. ولكن سرعان ما تبخر هذا المشروع "الثورى".

والحديث عن "تجديد" مصر، فضح التناقضات التى اتسم بها نفس المشروع فى فرنسا نفسها، مع مشاريع التعليم: كان هدفها خلق هذا "التجديد" فى فرنسا

نفسها، ومحاولاتها "لخلق إنسان جديد". وكانت ثمة كلمات معينة من المفترض أن لها وقع سحري على نشر في انتظار تحويله إلى ثوار. وفشلت في فرنسا، كما فشلت في مصر، ومحاولات الحملة تلقينها للمصريين من خلال الاحتفالات بأعياد الثورة مثلاً، أو إطلاق المنطاد الذي سقط بسرعة أمام الجمهور.

كذلك كانت محاولات العلماء الفرنسيين إيهام المصريين... الذين لم ينبهروا؛ لأن الفرنسيين كانوا يقدمون تجاربهم على أنها معجزات، فلم يكن لها أى صدى عند المشاهدين، لقد فهم الشيوخ أن الهدف من كل هذا العرض هو تأكيد سمو الفرنسيين عليهم، بينما كان بونايرت مقتنعاً بأن الدين هو الذى يمنعهم من استيعاب الدرس. وكاتبة المقال تؤكد أن تحطيم أدوات المعمل بالذات أثناء ثورة القاهرة دليل على أن المصريين فهموا أن علم الفرنسيين جزء لا يتجزأ من قهر المستعمرين لهم. وهكذا، فشل مشروع "بونايرت" لإعادة إحياء مصر. ولكن الحلم تحقق بعد ذلك مع "محمد على" ومن خدمه من الفرنسيين و"السان سيمونين".

وجاءت دراسة "أندريه ريمون" André Raymond تحت عنوان: "المصريون والتنوير أثناء الحملة الفرنسية" يبين فيها أن الفرنسيين جاءوا إلى مصر حاملين معهم أفكاراً بعينها، وهو "فكر التنوير"، و"المثل الثورية"، معتقدين أن تصديرها إلى البلاد المهزومة أمر هين، مثلما حدث في غزو إيطاليا، قبل حملة مصر مباشرة، ولكن مصر كانت في نظرهم تستحق نظرة مختلفة؛ لأنها مهد الحضارة؛ علاوة على أن الإسلام لم يكن ديناً في نظرهم وإنما تعاليم حكيمة كما أن نبيه فيلسوف! ولما كان لا يوجد في الإسلام رجال دين، لم يكن ثمة عائق يمنع تطور العقول. لذا، قرر الفرنسيون إنهاء الحكم المستبد الذى طغى على مصر، كما قرروا إشراك المصريين في النظام السياسى الحديث الذى سوف ينشئونه.

لذا، تولى بونايرت إقامة "الديوان" فور دخوله القاهرة، وأعضاءه التسعة المصريون كانوا من العلماء الذين اشتركوا في الحياة السياسية قبل ذلك. ولكن دور "الديوان" كان محصوراً في الاستشارة فقط (كما كان واضحاً من أول يوم)، وعليه

أن يساعد على تطبيق سياسة "بونابرت" على شعب لن يستمع إلا لعلمائه. لذا، لن يتحاور علماء الديوان بحق مع المستعمر إلا أثناء حكم "مينو".

والنتيجة الفعلية هي أن السلطة الحقيقية كانت في أيدي العسكريين، ولم يُستشر المصريون في القوانين وإعادة التنظيم لشئون بلدهم. كان على المصريين الطاعة ودفع الضرائب. والتنوير الوحيد في كل ذلك، كان التنظيم والفاعلية، وقد أعجب الجبرتي بهما جدا.

من الصعب معرفة رد فعل المصريين تجاه سياسة التنوير، فالمراجع لا تسمح لنا إلا بمعرفة كيف استقبلتها النخب المصرية من العلماء. وعموما، فالمجهود الفرنسي كان ينصب أساساً على هذه الفئة.

ومما لاشك فيه أن أهم حاجز يمنع وصول التنوير إلى المصريين، هو الحاجز الديني، ولم تكن الحملة بالنسبة للعامة إلا حرباً صليبية جديدة. فكان الدين هو القوة الوحيدة التي تحمى شخصيتهم وتقاليدهم. خاصة أن أهل البلد يفهمون عند كل تغيير، أن الهدف من ورائه تسهيل الاستعمار العسكري، وكانوا على حق في ذلك. وكان عدم الاهتمام بالعلوم المقدمة لهم، أحسن دفاع لمحاولات تجريدتهم من أخلاقياتهم وعاداتهم، ولكن الزيارات لمكتبة المعهد كان لها التأثير الأكبر مع الإعجاب بالكتب والصور الموجودة.

ولم يكن وجود المشايخ في الديوان إلا استمراراً لدورهم قبل الحملة، علاوة على مساعدتهم للجمهور وهم في هذا المركز. ولكن السلطة العليا لم تكن مقبولة: الحاكم غريب، مسيحي، وضد السلطان. ولكن ديوان 1800، الذي أسسه "مينو" كان له تأثير؛ لأنه كان مكوناً من مصريين فقط، وكانوا يناقشون شئون الدولة، ما دامت لا تمس الدين، وكانوا يوافقون على تجديدات كثيرة تعتبر "حديثاً". ولم يشعر الشعب طبعاً إلا بالطلبات الملحة والمستمرة للضرائب، ورؤية الاحتلال العسكري.

لذا، لن يجد "التنوير" أى نوع من التأثير أو الانتشار، ولم يترك مؤسسة أو قوانين

تدل على امتداده في تاريخ الأمة؛ وقد يكون أحسن دليل على ذلك أن المشايخ الذين عملوا مع الفرنسيين لم يثبتوا، فيما بعد، أن ذلك أثر على طريقة حياتهم أو تفكيرهم، حتى الشيخ الجبرتي الذي طالما ذكر على أنه تأثر بالفرنسيين. والنتيجة تعتبر فشلا كليا لإدخال التنوير كما كان هدف المحتل: سيكون لها بالفعل نتائج، ولكن متأخرة وغير مباشرة وذلك يعتبر أثر غير مباشر للحملة. "محمد علي" قام بالتغيرات التي كان "مينو" قد وضع لها خططاً ولم تنفذ، ولكن لا ننسى أن اسطنبول كانت تفعل نفس الشيء قبل سنوات سابقة على العام 1798.

وجاء المحور الثاني في الندوة حول الحضارة الفرعونية واكتشاف ماضيها التليد فكتب جان ليكلان Jean Leclant دراسة عن "اختراع مصر الفرعونية: الآثار علم المصريات قبل الحملة على مصر"، فأشار إلى أن تاريخ الاهتمام الغربي بالآثار والكتابات الفرعونية اهتمام قديم، ومنذ أيام الرومان؛ ولكن عرف ذروته مع عصر النهضة. خاصة أن عبادة الآلهة المصرية "إيزيس" كانت منتشرة قبل ذلك في كل أنحاء أوروبا، إلى أن تحولت إلى المسيحية مع الإمبراطور "كونستانتين" وجدت آثار كثيرة لهذه العبادة "لإيزيس"، واهتم بعض العلماء بالكتابة الهيروغليفية، وباللغة القبطية. فكان لتقليد المباني الفرعونية كالمسلات والأهرامات، تيار فني عرف النجاح في القرن الثامن عشر، وذلك قبل الحملة بكثيراً - كما أصبح كهنة الأهرامات أبطال كثير من القصص. كذلك، أخذت الماسونية كثيراً من الرموز الفرعونية كعنوان لها. وأثناء الثورة، كانت المسلات والأهرامات الخشبية تزين باريس في كل احتفال وطني. ثم كانت الحملة والعثور على حجر رشيد

وتحدث "باتريس بريه Patrice Bret" عن "العالم والهرم والمسلة: مشاكل علم الآثار الكبيرة وفقاً لـ"كوتيل" وكان "كوتيل" ضابطاً مهندساً، عضو لجنة تنفيذ كتاب "وصف مصر"، وكان قد ساهم -أيضاً- في الأعمال الميدانية، أثناء وجوده مع الحملة في مصر، كتب بحثين ضاع أحدهما - واهتم بمشكلة نقل مسلة من مصر إلى أوروبا، وقدم آراءه للمعهد الفرنسي في مصر. خاصة أن الجنرال "ديزيه"، عندما شاهد مسلتى الأقصر، فكر في نقل إحدهما إلى باريس، لعظمتها ودقة نقوشها. أما

البحث المفقود، فهو يتحدث عما سينشره "كوتيل" فيما بعد عن دراسته لكسوة الأهرامات.

١ وكتب "مادلين بينو سورس" Madeleine Pinault Sourensen مقالة حملت عنوان: "من رسم الفنان أو المهندس إلى الرسم الأثرى" بين فيها أن رسوم الفنانين التي نشرت في كتاب وصف مصر هي امتداد لرسوم القرن الثامن عشر وكتب الرحالة التي كان لنشرها تأثير كبير على مهندسى الحملة، خاصة أن المهندسين كانوا قد تعلموا الرسم أثناء دراستهم. وأهم ما نشر من رسومات قبل الثورة كان في كتب الرحالة الإنجليزي "بوكوك"، والدانمركيين "نوردن ونيبور"؛ والفرنسي "لوى - فرنسوا" كأساس كان الأكثر أهمية نظراً لكثرة ترحاله في مصر.

وتناولت دراسة عائدة حسنى Aïda Hosny قراءة سميوطيقية لبعض لوحات في جزء "الآثار"، اختارت الباحثة بعض اللوحات المنشورة في جزء "الآثار" من "كتاب وصف مصر"، ليس لتحليلها ولكن "لقراءتها"، حسب المنهج السميوطيقى، لترى ما أضيف من خيال الرسامين لما كان مفروضاً، أن يكون مجرد نقل لما يشاهدونه: مثل إضافة كهنة في داخل المعابد المرسومة. ونظراً لأن راسمى هذه اللوحات مختلفون، فهذا يدل على أن هذه الإضافات ميراث لثقافة مشتركة بين الرسامين. وتجيء اللوحات وكأنها لعرض مسرحى به كل العناصر، من الديكور إلى الأبطال، وهم طبعاً الجيش الفرنسى أو الرسام نفسه، ثم الجوقة وهى من الفلاحين أو الأعراب في الأدوار الثانوية.

أما دراسة "كلود تراونكير" Claude Traunecker فجاءت تحت عنوان: "رؤى يوتوبية وحقيقة أثرية في مصر القديمة في كتاب وصف مصر" بين فيها أن كُتِّب مقالات وتعليقات كتاب وصف مصر، وخاصة المقدمة، سجلوا ما كان يحلم به الفرنسيون وهم ينظرون إلى عظمة الآثار المكتشفة، فالنتيجة أنهم على يقين أن الفراعة كانوا أكثر الحكام حكمة لأن العلماء والكهنة كانوا يوجهونهم - كان عالمهم عالم رقة وتناسق، فحتى ما نراه من فظائع حربية على جدران المعابد، يراه الفرنسيون على أنه دليل على أن الفضائل الحربية أيضاً كانت من نصيب الفراعة.

وكاتب المقال يقارن "يوتوبيا مصر الفرعونية" هذه، بالكتابات الخيالية المثالية الأخرى - ويعجب كيف كانت هذه الرؤية عاملاً مشتركاً لكل الفنانين والكتّاب. لذا، نفهم، بعد الانهيار المصرى وفقدان الفراعنة لكل أثر، أن يعيد الفرنسيون إلى أرض مصر، هذا العالم المثالى، المبني على العلوم والحكمة. وكاتب البحث يعقد مقارنة بين فكر سان - سيمون، وهذه اليوتوبيا الاجتماعية التى يتخيلها فرنسيو الحملة.

وجاء المحور الثالث فى الندوة متضمناً ست مقالات، جاءت الأولى تحت عنوان: "اختراع الأرض : الدولة الحديثة والتاريخ الطبيعى صورة شعب : مصر كما رآها دينون" لـ "مارتين ريد Martine Reid" يَنت فيها أن الواقع بالنسبة "لفيفان دينون" كان فى المرتبة الثانية مثله فى ذلك مثل كل رحالة هذا العصر، لأنه تشبع بقراءات ما كتبه من جاء من قبله إلى مصر منذ الإغريق وهيرودوت. وكان اهتمامه الأول وهدف حضوره مع حملة "بونابرت" رؤية الآثار من أجل رسمها، لأنه فنان لا ينظر إلا ليرسم. كان عليه أن يشير إلى ما هو "غريب" عند المصريين ينظر إليهم من بعد كفنان، ونظراً لاختلافهم عنه وعن ثقافته، وعلى الرغم من ذلك، فإنسانيته تجعله يتعاطف أحياناً معهم. على أن نظرتهم لهم سطحية، وسريعة، وعند وصوله إلى الإسكندرية، وجد فيها ما أسماه الموت والصمت، وهذا الإحساس لم يتغير أثناء رحلته كلها.

وجاءت المقالة الثانية تحت عنوان: "فيوتو" والموسيقا المصرية، أو الانتباه إلى موسيقا الآخر لـ "لوسى رولت Lucie Rault". يستعرض المقال كيف وجد "فيوتو" ضالته فى الحياة عندما عاش فى مصر مع الحملة وتعلم الموسيقا المصرية. تعرف على قساوسة جيشين وكهنة يونانيين ووجد فى أديرتهم دراسة ترجع إلى عام 825 - وكتب عنها، وفى رشيد، مع "مينو" تعرف على المنشدين العرب وأدواتهم. واهتم بموسيقا البلاد الإفريقية والديانات المختلفة التى سمعها فى مصر. وعند عودته إلى فرنسا، كتب عن كل ذلك. ثم نتعرف على بعض الموسيقيين الفرنسيين الذين استلهموا مصر (وليس موسيقاها) فى أعمالهم.

وجاءت دراسة "سرج جاجايو Serge Jagailloax" تحت عنوان: "ضباط الصحة أمام الأمراض الاستوائية والطب التقليدي" أشار إلى أن الثورة كانت قد ألقت الكليات الملكية الطبية. لذا، كل من استطاع السفر إلى مصر، كان فريقاً مختلفاً في تعليمه وتجهيزه ليكون طبيباً أو جراحاً ميدانياً. نقرأ عن تحضير المستشفيات للجيش في مصر، عدد الجراحين والأطباء، والأسرة. واكتشاف الأمراض المحلية الجديدة على الفرنسيين. وقد بدأ ظهور الطاعون في الإسكندرية في 10 ديسمبر 1798. وعند العودة من حصار عكا، كان عدد المرضى بالطاعون، ألف مصاب. ويُنّ كيف حاول كبار أطباء الحملة تجهيز مدرسة لجراحين من الجيش الفرنسي، وكيف استعانوا ببعض الأدوية المحلية في علاجهم لجنود وقادة الجيش.

أما مقالة "مخطوطات مصرية عند "جوفروا سانت-هيليز" لجان - لوى فيشر Jean-Louis Fischer فقد ركزت على التاريخ العلمى لتكوين العالم الشهير واهتماماته في مصر باكتشاف الأنواع الجديدة المختلفة للسّمك والعصافير. وفي ليلة، قال "بونابرت" جملة كانت سبباً للتوجه العلمى لجوفروا سانت هيلير طيلة حياته بعد ذلك؛ أى حتى سنة 1840 ونقرأ أيضاً شرحاً لنظرياته العلمية، ولا نعرف شيئاً عن المخطوطات التى يتحدث عنها عنوان المقال.

ودارت مقالة جان - مارك دراون Jean- Marc Drouin حول عالين مهمين هما: روزير ودليل، فأما الأول (روزير) فيقص علينا كاتب البحث تاريخ حياة هذا العالم وكيف تعلم. وسافر كثيراً في مصر حيث ذهب مع البعثة العلمية للحملة، وكان يدرس الأرض وكتب بعدها في كتاب وصف مصر ما يخص المعادن mineralogy. وكان أهم ما اكتشفه كثرة النظرون في الأرض. أما عن عالم النبات "دليل"، فقد اكتشف النباتات الجديدة التى يجهلها الأوربيون، وكان يهتم أيضاً باستعمالاتها المحلية وتسمياتها (مما يدل على اهتمامه بالمصريين وهو اتجاه لم نستشفه عند باقى العلماء).

وجاءت دراسة "جيلين آلوم Chislaine Alleaume" عن "الأرض وبناء

الذاكرة: خرائط مصر أثناء الحملة" حيث بينت أن خرائط مصر التي رسمها علماء الحملة تكاد تكون أهم ما أنجزوه، ولو أنها لم تحظ بأى اهتمام. كانت ثورة في نظام المعرفة بالنسبة لعصرها. الخرائط كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمشروع السيطرة على أرض مصر، من أجل تحركات الجند. وكانت بنفس الأهمية لمعرفة أسماء القرى وحال أهل هذه القرى، وذلك من أجل تحديد الضرائب وجبايتها. وكان هذا هو عمل مهندسى الحملة. والأطلس عبارة عن 47 صفحة في كتاب وصف مصر، وكانت أكبر مشكلة بعد ذلك تحويل أسماء القرى والمدن إلى اللغة الفرنسية؛ لأن الحروف اللاتينية لم تكن ملائمة للأسماء العربية.

أصبح كل هذا في خدمة ما حدث من تطورات أثناء القرن التاسع عشر، خاصة فيما حاوله وكتبه "على باشا مبارك" قبل وبعد وصول الإنجليز.

وكانت خريطة القاهرة والإسكندرية في منتهى الدقة واستخدمت بعد الغزو مباشرة؛ وساعد أطلس القاهرة "على مبارك كثيرا في كتاباته" للخطط.

وتضمن المحور الرابع والأخير في الندوة : ست أوراق دارت حول البعد الحضارى والثقافى للحملة، فجاءت دراسة بول - مارى جرينفالد Paul-Marie Grinevald تحت عنوان: العودة من مصر : تقديم المعلومات.. كتاب وصف مصر : حدث في عالم النشر. وفيها يدرس بول بالتفصيل كل مراحل تمويل وطبع ونشر كتاب وصف مصر، الذى بدأ عام 1802 وانتهى فى عام 1830. ونوعية الورق المستعمل وإعادة النشر إلى آخره.

أما دراسة آنا بيوسى Anna Piussi، التى جاءت تحت عنوان: "سلاسل الإشراف الذهبية" لنابليون": الصورة الأولى لافتتاحية كتاب وصف مصر "تحية لدوتيرتر وبلزاك وسيسيل"، فتشير إلى أن أول صورة تبادل قارئ كتاب "وصف مصر" قد تحولت بفضل الرسام "سيسيل" إلى صفحة تمجد "نابليون" بل تؤوله، ما دامت هذه هى رؤيته للعالم. كما أن "المقدمة" التى تتحدث عن "نابليون" هى فى الواقع ، فى تناقض تام مع محتويات الكتاب التى لا تذكره بتاتا. وكان هدف

"نابليون" من هذه التوجيهات، التغطية الإعلامية على فشل حملته في مصر، فتركها "بونابرت" هارباً بسرعة . وجاء تاريخ النشر لهذا الكتاب الفاخر كاذباً ليمجد "نابليون" بعد مرور عشر سنوات على توليه السلطة في فرنسا. لقد تحول الكتاب إلى نصب يمجّد الإمبراطور - والمقال يقص بالتفصيل كيف حدث هذا، ومعركة بعض فناني الكتاب مع الإرشادات الكاذبة للكتاب.

وكتب "جان دومبر Jean Dhombres" عن روح الهندسة في مصر - "مونج وفورييه وجومار" "من العلم الغازى إلى الإيجابية" بيّن فيها أن لغة الطبيعة كانت هى العلم بعينه عند علماء الحقة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الحملة الفرنسية. ولكنها كانت أيضاً لغة المهندسين - وكانت دراسة الآثار تساعد على تطبيق نظرياتهم، ورفض ما كان أسلافهم من الرحالة قد كتبوه عنها، والمقال يدرس بتأن خطوات العلم الوضعى من خلال دراسات المهندسين الفرنسيين للآثار المصرية.

وحملت الدراسة التالية عنوان: "من الفصول إلى الجمعيات العلمية : أول مجاميع للآثار المصرية" لـ "ميشيل ديفاختر Michel Dewachter" بيّن فيها اهتمامات فرنسا بالآثار، لبحث أخذ من كاتبها ثلاثين عاماً، منقبا في مكتبات الماضى للرحالة وكاتالوجات بيع الآثار وحتى الصور القديمة. ويظهر الاهتمام بالآثار المصرية منذ أن كانت "عجائب" عند العلماء، ثم في بدايات المتاحف في الجمعيات العلمية وندواتها - هذا ما يقوله كاتبها، ولكن البحث في الواقع يتحدث عن الآثار الضئيلة التى أحضرها معهم ضباط الحملة.

وقدمت "ديدى ديفوشل Didier Devauchelle" دراسة عن حقيقة إسهام شامبوليون وجاء مقالها تحت عنوان: "من حجر رشيد إلى شامبوليون" وضح فيها أن فك رموز اللغة المصرية القديمة، كان قد مر بمرحلتين : الأولى ، أثناء النهضة مع عالم اسمه "أثاناز كيرشر"؛ أما المرحلة الثانية، فهى نهاية القرن الثامن عشر أثناء الاهتمام الخاص بمصر والمصريات، قبل الحملة الفرنسية. ولم يكن "شامبوليون" الوحيد فى محاولته فك الرموز الهيرغليفية وحجر رشيد، بل صارت له شهرة بصفته رمزاً، أكثر منه مفتاحاً لفك هذه الرموز.

وحملت آخر مقالة عنوان: "سطو أدبي على كتاب وصف مصر: قصة "العالمه" للشاعر "فيني" لـ "سرجا موسى Serga Moussa"، بينت فيها أننا لا نعرف إذا ما كان المقصود بكلمة L'Aleméh أهو "العالم" أم "العالمه"؟ لأن "فيني" لم يمه قصته، وما لدينا من هذه القصة المبثورة، يثبت إلى أى مدى استعان مؤلفها بكتاب وصف مصر. والغريب، كما نقرأ فى البحث، أن الأحداث تدور أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ومع ذلك، فالمؤلف لا يشير البتة إلى البعد الحضارى والثقافى للحملة العسكرية.

كتب "أنور لوفاف" خاتمة الكتاب، تحت عنوان: "إعادة التفكير فى الحملة على مصر" وحاول من خلالها أن يلخص كل الأبحاث (التي بهرته)، ويذكر ما تدينه مصر "لجومار"، الذى تولى تعليم "رفاعة الطهطاوى" عندما كان فى باريس.



وبعد فإن نتائج هذه الأبحاث فى غاية الأهمية، ليس فقط لمن يهتم بتاريخ الحملة الفرنسية على مصر، ولكن لكل من يهتم بتاريخ التنوير فى مصر. فقد أصبح هذا التنوير بالنسبة لبعض المؤرخين، هبة الفرنسيين إلى المصريين، وعنوان الندوة يقرأ، إما "الحملة مشروع تنويرى"، وإما "الحملة : مشروع التنوير". وأهمية هذه الندوة أنها من تنظيم من رأى من الفرنسيين أن على مصر أن تحتفل بمجىء "بونابرت"؛ لأنه جاء ليس غازيا، وإنما حاملا رسالة تحضير كانت مصر فى أشد الحاجة إليها ؛ ناهيك عن "الحرية" التى كانت مصر تفتقدها آنذاك؛ إذ كانت ترزح تحت وطأة استعباد المماليك. هذا بالضبط ما قاله "بونابرت" نفسه فى المنشور الذى كتبه على سفينة "لوريان"، ليتم توزيعه على المصريين لحظة وصول جيشه إلى الإسكندرية. وقد برر من صدق هذه النية الحسنة، وجود 160 عالما، نشرت أبحاثهم بعد ذلك فى كتاب وصف مصر الرائع. وتحولت فى نظرهم "الغزوة الاستعمارية" إلى "رحلة علمية تنويرية"، أصبحت فى القرن التاسع عشر، نموذجا يحتذى به للمد الاستعمارى العالمى، الذى سمي بـ "عبء الرجل الأبيض".

ولعل مما يؤكد هذه النية لمنظمى الندوة، الأماكن العلمية التي استضافت الندوة، والتي يشكرها "باتريس بريه" في مقدمته، وهى بالفعل أعلى هيئات علمية رسمية فى الدولة. فالكل يتكاتف كى تنجح هذه الندوة التى جاء للمشاركة فيها علماء متخصصون أجلاء، قدموا أوراقا نفيسة، فى أغلبها عن علماء الحملة، وما قدموه من علم جديد للإنسانية... وليس لمصر، فهل جاءت نتائج هذه الأبحاث لتثبت أن مصر تدين للحملة "بصحوتها" على أيدي جند "بونابرت" وعلمائه، كما خطط لها منظموها؟

والمعروف أن الندوة جاءت فى ميعاد حرج، وبعنوان مغرض : هذا ما يعترف به صراحة الأستاذ "باتريس بريه" فى مقدمته ، أسفا أن الأساتذة المصريين اعتذروا عن الحضور "جزئياً، والسبب هو مشاكل مصر الداخلية! لم يفهم لحظة أن الاحتفال بمرور مائتى عام على غزو مصر ، كان أمراً مهيناً لهم، وأن عنوان الندوة لا يبغي إلا هدفا واحدا هو تأكيد الزعم القائل بأن جيش بونابرت كان حاملاً للواء التنوير، وأنه صَدَّرَ التنوير بقيمه الرائعة إلى مصر. والغريب أن غالبية الأوراق المقدمة لا تتحدث إلا عن الإنجاز العلمى لعلماء الحملة، ولا علاقة لهم بمصر أو المصريين، حتى إن كان موضوع دراستهم نابعا من اهتمام الجيش الفرنسى ببلد يدرسونه ليحسن استغلاله؛ وهذا الكلام قيل صراحة.

وعلى الرغم من ذلك، يحاول بحث عن الموسيقى مثلاً، تأكيد أن دراسة الموسيقى التى أجراها "فيوتو"، كان لمصلحة الطرفين، هذا فى مقدمة البحث، ثم لا نقرأ بعد ذلك، كلمة واحدة تثبت من قريب أو بعيد هذا الكلام، فكل ما نقرأه عن "فيوتو" ينصب على دراسته للموسيقى العربية، ونشر نتائجها فى فرنسا... ولكن، أين التأثير الفرنسى على الموسيقى فى مصر؟!

أما الأبحاث التى تكلمت صراحة عن هذا التنوير الذى أتى به الجيش إلى مصر، وهى أبحاث "أندريه ريمون" و"ماريا لويزا أوريجيا"، فهى واضحة وبلا أى موارد: لم ير الشعب المصرى من الفرنسيين إلا جيش المستعمر، وحتى إن كان

العلماء المصريون قد عرفوا التنوير، فهو لم يؤثر عليهم في شيء، لا في تفكيرهم ولا في حياتهم. كان الفرنسيون، مثل تيار "الأيدولوج" الفلسفي، يحملون من بعد، ويُنظِّرون لبلد لا يعرفون عنه شيئاً؛ ولكن انبهارهم بالجنرال "بونابرت" جعلهم يحملون.

كان الواقع شيئاً آخر لا علاقة له بتهويلاتهم عن بلد سيعود إلى مجده السابق بفضل الجهود الفرنسية التي اقتصرَت على فرض ضرائب باهظة. وحتى تأثير "تنوير الحملة" على الدولة العثمانية، عن طريق ما حدث في مصر، فقد فُند بجدارة!

ولاشك أن من قرأ عنوان الندوة، والمقدمة الواثقة لباتريس بريه سيصاب بخيبة الأمل، إن كان ينبغي التأكد من أن مصر استفادت علمياً من الحملة، خاصة أن ثلثي الأبحاث تتحدث عن العلماء. ولنا أن نتخيل ما فكر فيه "باتريس بريه" نفسه عندما سمع أو قرأ ما يؤكد أن الهدف من الندوة في مناسبة احتفال فرنسا بمرور قرنين من الزمن على الحملة الفرنسية، لم يأت بها كان يشتهي مؤيدو فكرة استعمار مصر.... من أجل مصلحتها. بل قد يكونون قد صدموا عندما عرفوا أن "السان سيمونين" هم أول من اهتم بالبعثة العلمية مع جنود الحملة؛ فبدأ الحديث عن الحملة وإبراز دور، لم يشعر به هؤلاء العلماء، أثناء وجودهم في مصر. خاصة أن هدفهم لم يكن يوماً تصدير التنوير إلى مصر!

إنها ندوة ناجحة إن قيسَت بمستوى الأبحاث، فهي كلها على مستوى عال، من أساتذة متخصصين بالفعل وأمناء في تحليلاتهم ونتائج أبحاثهم. وإن كان لا بد من استخلاص النتيجة الفعلية لكل هذا المجهود، والتي يمكن إيجازها في أنه ما من أحد يستطيع بعد ذلك التحدث عن "التنوير في مصر مع الحملة الفرنسية".

وليست النتائج المستخلصة من هذه الندوة جديدة علينا، والكثير من الادعاءات التي تحولت إلى مسلمات، وجدت من أثبت كذبها. ولكن أهمية هذه الندوة، أن الهدف منها كان عكس ذلك؛ إذا أراد منظموها، كما تقرأ في مقدمة "باتريس بريه"،

إثبات العلاقة الوثيقة بين الحملة العسكرية والتنوير، بمعنى أن التنوير كان أهم ما حصلت عليه مصر، على الرغم من الهزيمة العسكرية النكراء لجيش بونابرت. ولم يعد أحد يشكك الآن في الأمر الأخير، ولكن.. وهكذا يدافع عنها الاستعماريون، ألم يكن التنوير الحصيلة الجميلة لها في أرض كانت غارقة في الجهل؟!

أيا كان الأمر، فقد تأكد أن التنوير فشل في فرنسا نفسها... فما العجب إن كان قد فشل في مصر؟ والمصريون لم ينبهروا بالعلم الفرنسي، وكيف ينبهرون وقد قدم لهم على أنه من أعمال السحرة؟! علاوة على أن العلماء أنفسهم لم يكن يوماً من أهدافهم، نشر التنوير في مصر؛ لأن ما كان يهمهم هو أبحاثهم العلمية البحتة؛ علاوة على كونهم أداة استعمار تحت إمرة الجيش. أما سفرهم مع الجيش إلى مصر، لم يكن بدعة جديدة كما ادعى المعجبون "ببونابرت، وكتاب وصف مصر، لم يكن إلا امتداداً طبيعياً لنوعية الدراسات السابقة. أما حجر رشيد، فهو رمز فقط لما حدث بعد ذلك من فك الرموز، فقد قدم الكثير من العلماء، قبل "شامبوليون"، ما يسمح له بفك الرموز الهيروغليفية، وكانت هذه المعلومات أكثر نفعا له من حجر رشيد. حتى "الموضة الفرعونية" بعد الحملة، كانت على أشدها، عقوداً قبل اكتشاف مصر في عام 1798.

كذلك، كل ما قيل عن أن تركيا استفادت بما حدث في مصر من تغيير بسبب الحملة، بينما التغيير نفسه كان قد بدا واضحاً فيها، منذ القرن الثامن عشر، قبل أن يفكر بونابرت في غزو مصر بكثير جدا.

ولكن الجديد هو معرفة، بالضبط، من أين جاءت أسطورة أن "بونابرت" وعد اليهود بوطن في فلسطين: إن هذه الأسطورة لم تكن إلا إحدى تهويمات "الأيديولوج" وهم في فرنسا، لإعادة تخطيط المنطقة حسب خيالهم الجاهل الجامح. كما أننا نعرف من إحدى الدراسات، أن أطلس كتاب وصف مصر كان من الدقة بحيث إن القرن التاسع عشر كله استفاد منه، وحتى نهايته مع "خطط" على مبارك.

أما عن التنوير الذى جاء مع الفرنسيين، "فأندريه ريمون" قد لخصه ببراعة فى جملتين: الفرنسيون لم يطلبوا من المصريين إلا الطاعة ودفع الضرائب؛ والتنوير لم يترك مؤسسة أو قوانين تدل على امتداده فى تاريخ الأمة المصرية. وهكذا ، شهد شاهد من أهلها!

* * *